سورة لقمان[1]



﴿ الم (١) ﴾

سبق أنْ فصَّلنا القول فى الحروف المقطَّعة فى بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أنْ يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده ؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعانى ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى ؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربى ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان

---

(١) سورة لقمان هى السورة رقم (٣١) فى ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ٣٤ آية ، وهى سورة مكية نزلت بعد سورة الصافات ، وقبل سورة سبأ . قال القرطبى فى تفسيره : « هى مكية ، غير آيتين . قال قتادة : أولهما : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] .

وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل في قريش التي جمعتْ في لغتها كل لغات القبائل العربية ، وقد خرج منها صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فيها مطعن ما تركوه ، إذن : فهذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هي من حروف التنبيه التي كان يستخدمها العرب في كلامهم ، فهي مثل (ألا) في قول الشاعر[1] .

ألاَ هُبِّي بِصحْنِك فَاصبْحِينا ... ولاَ تُبْقِ خُمور الأَنْدرينَا[2]

فألا أداة للتنبيه ، وتأتي أهمية التنبيه في أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية في ذِهْنه ، لكن السامع قد يكون غافلاً ، فيُفاجأ بالكلام دون استعداد ، فيفوته منه شيء ، فتأتي حروف التنبيه لتُخرجه من غفلته ، وتسترعي انتباهه ، فلا يفوته من كلامك شيء ، إذن : أبسط ما يقال في هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب في كلامهم .

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبني كله على الوصل في آياته وسوره ، بل في آخره وأوله نقول : (من الجنة والناس بسم الله الرحمن

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب أبو الأسود ، شاعر جاهلي ، ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة ، وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد ، هو من الفتاك الشجعان ، أشهر شعره معلقته التي فيها هذا البيت : توفي نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلي ٥/٨٤] .

(٢) الصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . ومعنى البيت : ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية ، واسقني الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخري خمر هذه القرى . [شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٦٥] .

الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك في الآيات والسور . وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التي بعدها ؛ لذلك يقولون عن قارئ القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ في آية أو سورة ، مرتحل إلى التي تليها .

إذن : الوصلْ سمَة عامة في القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة في بدايات السور ، فهي قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قالوا : ليدلَّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن ؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن في الوصل ؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبي ﷺ : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك للمذكر ، وهي عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان في المكان أو في المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتي بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فتقول فى خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما .. إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. (٣٢) ﴾ [يوسف] فذا اسم إشارة ليوسف ، واللام للبُعْد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث .

ويقول تعالى فى خطاب موسى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] أى : اليد والعصا ، فذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ .. (٢) ﴾ [لقمان] لمؤنث وهى الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله ﷺ وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هى المهمة التى يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] فوصفه بالحكمة ، أما فى أول البقرة فقال : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى .. (٢) ﴾ [البقرة] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب. أى : شك .

وكلمة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] تؤكد لنا صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وصدْق الملَك الذى حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ [التكوير]

وقال عن سيدنا رسول الله فى شأن تبليغ القرآن : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة]

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة]

ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب فى هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا فى شىء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [البقرة]

فهذه قضية حكم الله بها ، وهى ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتى بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليهم .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته فى قَرْن واحد ، ولا فى أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته فى الكون .

ومعنى ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أى : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزِله . ومعنى حكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، ولا يضع الشىء فى موضعه إلا الله ؛ لأنه هو الذى يعلم صدْق الشىء فى موضعه .

أما نحن فنهتدى إلى موضع الشىء ، ثم يتبين لنا خطؤه فى

موضعـه ، ونضطر إلى تغييره أو تعـديله ككثير من المخـترعات التى ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوينا بنارها فيما بعد .

فكل آية ذكرت ناحـية من نواحى كمـال القرآن وجهة من جـهات عظمتـه ، إذن : فهى لقطات مـختلفة لشيء واحـد متعـدد الملكات فى الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات فى الآية بعدها :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ﴾

هنا يقول سـبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ﴾ [لقمان] أما فى صدر سـورة البقرة فيـقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ﴾ [البقرة] وفَرْق بين المـعنيين ، فـالتقـوى تقتـضى الإيمان ، ومطلوب الإيـمان الافـتراض يعنى : أنْ تؤدى ما فرضه الله عليك .

أما مطلوب الإحســان ففوق ذلك ، فالإحـسان فى الأداء أن تُحسن فى كَمِّه ، وأن تحسن فى كيفه : تحـسن فى كيفه بأن تستصـحب مع العمل الإخلاصَ للمـعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحـسن فى كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدى فوق مـا فُرض عليك ، فبدل أنْ تصلى ركعتين تصلى ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان فى الكم .

والتقوى من عـجائب التأويل القرآنى كما سـبق أنْ قلنا ، فالقرآن يقـول (اتقوا الله) ويقـول (اتقوا النار) ، والـمعنى عند التـحقـيق واحد ؛ لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبينهـا وقاية وحاجزاً يمنعك منهـا ، كـذلك اتق الله ، لا أن تجـعل بـينك وبين ربك حـاجـزاً ؛ لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله .

إنما اجـعل بينك وبين صفات الجـلال ومتعلقاتهـا من الله وقاية ، اتق صـفات المنتـقم الجبـار القـهار .. الخ ؛ لأنك لستَ مطيـقاً لهـذه

الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندى من جند الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعنى واحد .

والبعض يأخذون بالظاهر فيقولون : كيف نتقى الله ، والتقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك ؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتى باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدى كل منهما معنى جديداً .

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله عن الإحسان - فى حديث جبريل - قال : « أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »(١)

فحين نوازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣)﴾ [لقمان] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هى لقطات إعجازية كل منها يؤدى معنى ، وإنْ ظن البعض فى النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو فى حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأملته .

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة : والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخرجوا عنها فقال ﴿وَرَحْمَةً (٣)﴾ [لقمان] يعنى : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، وهو حديث جبريل الطويل الذى تمثل فى صورة رجل « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .

كما فى قولـه سبحانه :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٢) ﴾ [الإسراء] فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هى كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون ؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هى العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية فى العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفى الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عزوجل ، ثم هى تتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة فى العام ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (١٤١) ﴾ [الأنعام] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هى عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال أبداً ؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف ... الخ.

وفى الصلاة استطراق للعبودية فى الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع

أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد ، ففى الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوضيع - نقصد الوضيع فى نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه - فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا فى الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ فى نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد فى مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التى فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقى التكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحى ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقى إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد فى حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله فى رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

فقال سيدنا رسول الله : « إذن ، لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »(١)

وكما تُحدث الصلاة استطراق عبودية تُحدث الزكاةُ فى المجتمع

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغنى والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغنى على الفقير ؟ إذن : فى الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

وقد فرض الله الزكاة للفقراء ؛ لأن الله سبحانه حين يستدعى عبده إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لابُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .. الخ.

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهى صِلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة فى الأدب العربى ، فيُرْوى أن ابن المدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن اللُّها تفتح اللَّها[1] ، أى : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلى لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشرى ، ذهب إليه وقال : عندى شعر أحب أنْ أنشده لك ،

(١) اللُّها : أفضل العطايا وأجزلها . ويقال : إنه لمعطاء للُّها إذا كان جواداً يعطى الشيء الكثير . واللَّهاة : لحمة حمراء فى الحنك فى أقصى سقف الفم . [لسان العرب ـ مادة لَهَا] .

فقال : أتدرى ما الشرط ؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَا فى أَبِى حَسَنٍ مَدِيحاً كَمَا بالمدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ

يعنى : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنَا أكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُراً ومَنْ كَفَّيْه دِجلَةُ والفُرَاتُ
وقَالُوا يَقبل المدحَاةَ لكنْ جَوَائِزُهُ عليهنَّ الصَّلاَةُ
فقُلْتُ لهم ومَا تُغْنى صَلاَتى عيَالى إنما الشَّأنُ الزَّكَاةُ
فَيأمُر لى بكسْر الصَّادِ منها فَتُصبح لىِ الصِّلاتُ هِى الصَّلاةُ

فلما تجرأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة ؟ فقال : لأنه إما مسىء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهى كفارة لإساءته فى شعره ، وإنْ كان محسناً فهى كفارة لكذبه فىَّ .

ثم يقول سبحانه فى وصفهم : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضى أنْ نعمل بمنهج الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه فى الآخرة ، وأننا مُحاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ونلحظ هنا فى الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال :﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً - مع هذا - يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة ؛ لأنها مسألة بعيدة فى نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذى يرونه

أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستبعده فى حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصرى [١] : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما سأل النبى ﷺ حذيفة [٢] رضى الله عنه : « كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟» قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها [٣] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون » فقال ﷺ : « عرفتَ فالزم »

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ [لقمان] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذى لايتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به

---

(١) هو : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد البصرى ، نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات . كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً ، مات سنة عشر ومائة ، وله ثمان وثمانون سنة . [تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٧١] .

(٢) ما ورد كان فى حق الحارث بن مالك الأنصارى . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير (٣/٣٠٢) وقال الهيثمى : « فيه ابن لهيعة » . وكذا أورده عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لقى رجلاً يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ الحديث وعزاه للبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس . وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة مدر] .

فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام فى مكة وصفته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا . فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهى عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب فى سورتين : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وذلك حين يمرون على الصراط ويرونَ النار بأعينهم رأى العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب ؟ قلنا : إن الهداية تأتى بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذى قَبل دلالة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هى المعونة علىَ الإيمان ، فيُحبِّبه

إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [لقمان] والمتكلم هو الله - عزوجل - فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنا عزوجل يريد أنْ يقول لنا نعم القرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشيء ، إنما المنتفع بالهداية أنت ، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى كأنه مطية يُوصِّلك إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى ممَّنْ ؟ ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾ [لقمان] ممن لا يستدرك عليه ، فإنْ دلَّك دلَّك بحق ، وهَبْ أن البشر اهتدوْا إلى شيء فيه خير ، لكن بعد فترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون له مضارَّ ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هي القوانين البشرية التي أُلغيت أو عُدِّلت ؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذي ينبغي أن يحكمنا ونطمئن إليه لا يكون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البشر ربما ينتفعون من قوانينهم ، وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص